

٢ - ليس كمثله شيء !!

قيل للإمام على : بم عرفت ربك ؟ قال : بما عرفني نفسه ، لا تشبهه صورة ، ولا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، قريب في بعده ، بعيد في قربه ، فوق كل شيء ، ولا يقال شيء تحته ، وتحت كل شيء ، ولا يقال شيء فوقه ، أمام كل شيء ، ولا يقال شيء أمامه ^(١) ، داخل في الأشياء لا كشئ ، ولا من شئ ، ولا في شئ ، ولا بشئ ، سبحانه من هو هكذا ، ولا هكذا غيره ^(٢) .

ولا يعنينا من هذا القول أن يكون للإمام على أو لغيره ، فالقصد معرفة المعتقد الإسلامي والمعرفة الإلهية في الفكر الإسلامي ، غير المقيد بالقوالب الفقهية ، والمقدمات والاستدلالات الكلامية . .

(١) كذا ، والسياق : ولا يقال شيء خلفه ، وخلف كل شيء ، ولا يقال شيء أمامه .

(٢) اللع - ص ١٧٩ .

وما نسب إلى الإمام على إنما هو تصوير للوحدانية المطلقة ، كما هو تصوير دقيق للذات المحيطة بكل شيء ، دون اتصال بشيء . . وإنه - كما قال جعفر الصادق - (من زعم أن الله في شيء ، أو من شيء ، أو على شيء ، فقد أشرك ، إذ لو كان على شيء لكان محمولا ، ولو كان في شيء لكان محصورا ، ولو كان من شيء لكان محدثا) ^(٣) . ومع هذا ، « فهو عالم بكل شيء ، لأن المعرفة جوهره ، وهو القدير ، لأن القوة جوهره ، والمحجب ، لأن الحب جوهره أيضا . ليس لأن هذه صفات تنبثق عن جوهره . إن شروط الزمان والمكان لا تنطبق كلية عليه » ^(٤) .

وهو نفس ما ذهب إليه المعتزلة من أن الله « عليم بذاته » ، و « قادر بذاته » ، و « حي بذاته » ، دون تباين بين الذات والصفة ، فلا يعنى وجود معرفة وقوة وحياة فيه أنها جزء من جوهره ، وإلا فإن حساب هذه صفات خالدة « منفصلة عن جوهره » يمكن الجنوح بها إلى تعدد ذاتية الخالق سبحانه . ولا يكاد المتصوفة - في معرفتهم لله سبحانه - يخرجون على هذا الوعي الصحيح ، حتى على السنة أولئك الذين يذهبون باللفظ مذاهب . فالخللاج - في مناجاة له بجوار قبر أحمد بن حنبل - لم يبعد عما نسب إلى الإمام على :

« يا من أسكرني بحبه ، وحيرني في ميادين قربه ، أنت المتفرد بالقدم ، والمتوحد بالقيام على مقعد الصدق ، قيامك بالعدل ، لا بالاعتدال ، وبعدك

(٣) الرسالة القشيرية - ج ١ ص ٤٠ و ٤١ .

(٤) روح الإسلام - سيد أمير على - دار العلم للعلايين سنة ١٩٦١ - ص ٤٠٦ عن جعفر الصادق .

بالعزل ، لا بالاعتزال ، وحضورك بالعلم ، لا بالانتقال ، وغيتك بالاحتجاب ، لا بالارتحال ، فلا شيء فوقك ، فيظلك ، ولا شيء تحتك ، فيقلّك ، ولا أمامك شيء ، فيحلك ، ولا وراءك شيء ، فيدركك » .

ويملى على بعض تلاميذه : « إن الله تبارك وتعالى - وله الحمد - ذات واحد ، قائم بنفسه ، منفرد عن غيره بقدمه ، متوحد عن سواه ببروبيته ، لا يمازحه شيء ، ولا يخالطه غير ، ولا يحويه مكان ، ولا يدركه زمان ، ولا تقدره فكرة ، ولا تصوره خطرة ، ولا تدركه نظرة ، ولا تعتربه فترة » .

وقال : « من ظن أن الإلهية تمتزج بالبشرية ، أو البشرية تمتزج بالإلهية فقد كفر ، فإن الله تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ، فلا يشبههم بوجه من الوجوه ، ولا يشبهونه بشيء من الأشياء ، وكيف يتصور الشبه بين القديم والحديث ؟ ومن زعم أن الباري في مكان أو على مكان أو متصل بمكان ، أو يتصور على الضمير ، أو يتخايل في الأوهام ، أو يدخل تحت الصفة والنعت - فقد أشرك » .

وقال : « صفات البشرية لسان الحجة على ثبوت الصمدية ، وصفات الصمدية لسان الإشارة إلى فناء صفات البشرية ، وهما طريقان إلى معرفة الأصل الذي هو قوام التوحيد » .

وقال : « الخارج من حدود الأوهام ، وتصاوير الظنون ، وتخيل الفكر ، وتحديد الضمير ، الذي (ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير) ^(٥) .

(٥) أخبار الحلاج - مطبعة القلم بباريس سنة ١٩٣٦ - ص ١٧ و ٢٩ و ٤٧ و ٤٩ و ٧٣ على الترتيب ..

وقال :

حاضر غائب ، قريب بعيد

وهو لم تحوه رسوم الصفات

هو أدنى من الضمير إلى الوهم (م)

وأخفى من لائح الخطرات

وقال :

فما جال في سرى لغيرك خاطر

ولا • قال - إلا في هواك لسانی

فإن رمتُ شرقاً أنت في الشرق شرقه

وإن رمت غرباً أنت نصب عيانی

وإن رمتُ فوقاً أنت في الفوق فوقه

وإن رمت تحتاً أنت كل مكان^(٦)

هذا هو الخلاج الذي سجن وعذب ومزق جسده وصلب وحرق وذرى

رماده باسم الكفر ، ومع ذلك فهو لا يحمل لقضاته مقتاً ، ولا مجرد اتهام .

يقول لإبراهيم الحلواني : « أما ترى أن ربى ضرب قدمه في حدثى ، حتى

استهلك حدثى في قدمه ، فلم يبق لى صفة إلا صفة القديم ، ونطق في تلك

(٦) ديوان الخلاج - ص ٢٦ و ٥٩ .

الصفة ، والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدث ، ثم إذا نطقت عن القديم ينكرون على ، ويشهدون بكفرى ، ويسعون إلى قتلى ، وهم بذلك معذورون ، وبكل ما يفعلون لى يؤجرون^(٧) .

وهذا التوسع منه فى الشعور بالوجود الإلهى ، حتى يستغرق كيانه كله ، بحيث يتلاشى الوجود الإنسانى فى الوجود الإلهى - ما هو إلا ثمرة قوة الإيمان وعمقه ، وليس خروجًا إلى الكفر .

ذلك لأن إدراكه حقيقة ما بين الخالق والمخلوق قوامه أن « الحق حق ، والعبد باطل ، وإذا اجتمع الحق والباطل يضرب (بالحق على الباطل ، فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) »^(٧) .

بل قد يقوى إدراكه للذات الإلهية المهيمنة على كل شىء ، فيرى أن « الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم ، وأما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما »^(٧) ، لأن المخلوق لا يملك إلا ما أراد الخالق ، فهو ظل الله فى أرضه ، يتحرك بحركته ، ولا حيلة إلا أن يكون مسخرًا لمشيئته وقدرته ، مفتقرًا إلى الله دائماً ، متجهًا إلى الله دائماً ، فإذا نطق بما يحفل ، فإن هذا النطق لن يغير من الحقيقة الكونية شيئًا ، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)^(٨) هو عابد لله باقتضائه إلى الله ، عامل فى طاعة الله بتنفيذه مشيئة الله .

ومع أن هذا التصوير قد يطنى على قوانين الشريعة ، فإن فى لغة من يصل بحبه إلى حد إنكار الذات رغبة فى عدم حرمان الآخرين من حب « ليل » ،

(٧) أخبار الحلاج - ص ٢١ و ٥٦ و ٥٣ .

(٨) سورة الذاريات - ٥٦ .

وإن خالف هذا ما جرى عليه السلوك السويّ للبشرية ، لكنه تعبير يمثل السمو على هذه القيود البشرية .

ولعل هذا ما عناه الإمام الغزالي بقوله :

« كلام المتصوفة أبداً يكون قاصراً ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ، ولا يهم حال غيره ، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال »^(٩) .

وهذا ما يفسره لنا قول ابن عربي : « ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص ، وبصفات الذم ؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها ، وكلها حق له ، كما هي صفات المحدثات حق للحق ؟ (الحمد لله) ، فرجعت إليه عواقب الثناء من كل حامد ومحمود ، (وإليه يرجع الأمر كله) ، فعمّ ما ذم وحمد ، وما تم إلا محمود ومذموم .. »

فإن كان الحق هو الظاهر ، فالخلق مستور فيه ، فيكون الخلق جميع أسماء الحق ، سمعه وبصره وجميع نسبه وإدراكاته ، وإن كان الخلق هو الظاهر ، فالخلق مستور باطن فيه ، فالخلق سمع الخلق وبصره ويده ورجله وجميع قواه ، كما ورد في الخبر الصحيح^(١٠) .

وهذا ليس مجرد تفسير لوحدة الوجود ، وإنما هو استلزام واسع للحديث القدسي ، فهو لا يؤول ظاهر اللفظ ، بل يرى اللفظ على حقيقة مدلوله اللغوي ، لأن الله في كل شيء ، كما لا ينكر أحد ، وإن كانت الظرفية ليست

(٩) إحياء علوم الدين - المكتبة التجارية الكبرى - ج ٤ ص ٤٢ .

(١٠) فصوص الحكم - ص ٨٠ و ٨١ .

امتزاجاً ، ولا كينونة ، أو احتواء ما .

كما أن هذا لا يعد « إلحاداً » في أسماء الله ، إذا كانت « حقيقة الإلحاد فيها العدول بها عن الصواب فيها ، وإدخال ما ليس من معانيها فيها ، وإخراج حقائق معانيها عنها . . ومن فعل ذلك فقد كذب على الله . . فالإلحاد إما يمحدها وإنكارها ، وإما يمحدها بمعانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب ، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة ، وإما يجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات » (١١) .

وذلك ، لأن هؤلاء الذين يجتهدون في التعبير عن مشاعرهم الصادقة - في حالة وقوعهم تحت مؤثرات نفسية اختلط فيها حب الله بتعظيمه ، والشوق إلى لقاء الله بإكباره ، والشعور بهيمنة الله بخشيته - قد يحسون للفظ الذي يعبرون به معاني لا تقع في حساب من ليس في حالهم . . ولهذا ينبغي أن نضع في الاعتبار فتوى شيخ الإسلام تقي الدين السبكي (١٢) ، قبل أن نجرؤ على هؤلاء القوم بالتكفير ، أو بأنهم يلحدون في أسماء الله .

يقول ابن عري : « إن بعض الحكماء وأبا حامد - الغزالي - ادعوا أنه يعرف الله من غير نظر إلى العالم ، وهذا غلط ، نعم تعرف ذات قديمة أزلية ، لا يعرف أنها إله حتى يعرف المألوه ، فهو الدليل عليه » (١٣) .

ابن عري لا ينكر المعرفة ، وإنما ينكر المنهج ، فالأثر دالٌّ على المؤثر ،

(١١) مدارج السالكين - ج ١ ص ٢٨ .

(١٢) انظر ص ٢٩ من هذه الدراسة .

(١٣) فصوص الحكم - ص ٨١ .

والمخلوق دليل على الخالق ، وما أكثر ما نختلف مع الصوفية في المنهج ، والغاية واحدة ، لكن لا نجرؤ على التكفير ، فأبن عربى هنا اكتفى بقوله « غلط » ، وما أيسر « الغلط » مع اختلاف وجهات النظر . ومادامت القلوب خالصة لله ، والمهدف تعبير عن عظمة الله ، ورغبة في مرضاته ، فعلينا أن نتروى في اختيار اللفظ - ونحن بصدد تقييم الآخرين - مهما اختلفت السبل .

ولقد نجد حرص المتصوفة على الأخذ بالحديث القائل : « خلق الله آدم على صورته » ، مع طعن الكثيرين في صحة نسبته إلى رسول الله ﷺ ، وهذا الحديث يدعمه حديث آخر : « من عرف نفسه عرف ربه » ، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة : (انظروا في أنفسكم) . . (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) . . ولا ريب في أن الإنسان ومكونات خلقه العظيمة أقرب الأدلة - إلى هذا المخلوق الذى تأخذه العزة بالإثم - على وجود البارئ المصور سبحانه ، وعلى قدرته وعظمته .

وبالنظر في المحدثات - وفي مقدمتها الإنسان - التى تبدل وتتغير ، ونحيا وتموت ، وتزهو ويصيبها العطب ، من حيث لا تحتسب - نجد أن « الوجود كله خيال في خيال ، والوجود الحق إنما هو الله ، خاصة من حيث ذاته وعينه ، لا من حيث أسماءه ، لأن أسماءها مدلولان : المدلول الواحد عينه ، وهو عين المسمى ، والمدلول الآخر ما يدل عليه مما ينفصل الاسم به عن هذا الاسم الآخر ويتميز ، فأبن الغفور من الظاهر والباطن ، وأبن الأول من الآخر ؟ !
فما في الكون إلا ما دلت عليه الأحدية ، وما في الخيال إلا ما دلت عليه الكثرة ، فمن وقف مع الكثرة كان مع العالم ومع الأسماء الإلهية وأسماء العالم ،

ومن وقف مع الأحدية كان مع الحق ، من حيث ذاته الغنية عن العالمين» (١٤) .

.. قد تبدو عبارة ابن عرى مجالا لثورة الكلاميين ، لأنه فرق بين الذات والصفات « الأسماء » ، لكن جملة العبارة تتحدث عن أثر الصفات لا عن كنه الصفات ، والعهد بابن عرى فضفاض العبارة ، وأحيانا يسبق لفظه فكره ، ثقة أو استرسالا ، لكنه مع ذلك قادر على أن يقول الكثير ، فيعجب ، أو يثير ، أو يبعث على التساؤل ..

ونحن نجد من الصوفية من كانت عبارته أكثر قرنا مما درج عليه الفقهاء والمتكلمون ، كما في قول ذى النون المصرى ، لرجل سألته عن التوحيد : « هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج ، وصنعة الله للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس في السموات العلى ، ولا في الأرضين السفلى ، مدبر غير الله تعالى : ومهما تصور وهمك فالله تعالى بخلاف ذلك » (١٥) .

وسئل الجنيد عن التوحيد ، فقال : « معنى تضمحل فيه الرسوم ، وتندرج فيه العلوم ، ويكون الله تعالى كما لم يزل » (١٥) .

وقال روم بن أحمد بن يزيد - ت سنة ٣٠٣ هـ - عن التوحيد : (محو آثار البشرية ، ونجود الألوهية » (١٥) .

• • •

(١٤) فصوص الحكم - ص ١٠٤ .

(١٥) اللوح - ص ٤٩ و ٥١ .

هذا عن الله سبحانه . .

أما عن علاقة الإنسان بالله ، فيصورها قول ابن عربي :
« اعلم أن هذه النشأة الإنسانية بكمالها روحاً وجسماً ونفساً خلقها الله على صورته » ، إذ إنه « لما شاء الحق سبحانه - من حيث أسمائه الحسنى ، والتي لا يبلغها الإحصاء - أن يرى أعبائها ، وإن شئت قلت أن يرى عينه . . . وقد كان الحق سبحانه أوجد العالم كله وجود شبح مسوى لا روح فيه ، فكان كمرآة غير مجلوة . . فافتضى الأمر جلالة مرآة العالم ، فكان آدم عين جلالة تلك المرآة ، وروح تلك الصورة » ، ومن ثم (علم آدم الأسماء كلها) ، ليكون قادراً على تبين عظمة الخالق والمخلوق معاً ، وليكون بوسعه خلافة الله في الأرض ، بحيث يقيم الشريعة ، ولهذا سمي إنساناً وخليفة . . فيكشف من أسرار الكون بقدرته على التجريب والتسخير والإبداع . . « فأما إنسانيته فلمعموم نشأته ، وحصره الحقائق كلها ، وهو للحق بمنزلة إنسان العين من العين الذي يكون به النظر ، وهو المعبر عنه بالبصر ، فلهذا سمي إنساناً ، فإنه به ينظر الحق إلى خلقه فيرحمهم . . قيام العالم بوجوده ، فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم ، وهو محل النقش ، والعلامة التي يختم بها الملك على خزائنه . . وسماه خليفته من أجل هذا ، لأنه تعالى الحافظ به خلقه ، كما يحفظ الختم الخزائن ، فما دام ختم الملك عليها لا يجسر أحد على فتحها إلا بإذنه ، فاستخلفه في حفظ الملك ، فلا يزال العالم محفوظاً مادام فيه الإنسان الكامل »^(١٦) .

وإذا كان المقصود « بالحفظ » القدرة على الاستفادة من مكنونات « الكون » ، وإبراز أسرارها الباهرة - فإن من خلال الكشف عن هذه

(١٦) فصوص الحكم - ص ٤٨ و ٥٠ وص ١٦٧ .

« الأسرار » التي يختزنها تكوين « الإنسان الخليفة » يصبح الإنسان بمثابة « ظل الله » في الأرض . .

« فما أوجد الحق الظلال ، وجعلها ساجدة متفيسة عن اليمين والشمال . . »
دلائل لك عليك وعليه ، لتعرف من أنت ، وما نسبتك إليه ، وما نسبته إليك ، حتى تعلم من أين ، أو من أى حقيقة إلهية اتصف ما سوى الله بالفقر الكلى إلى الله ، وبالفقر النسبي بافتقار بعضه إلى بعض وحتى تعلم من أين ، أو من أى حقيقة اتصف الحق بالغناء عن الناس ، والغناء عن العالمين ، واتصف العالم بالغناء ، أو بغناء بعضه عن بعض من وجه ، هو عين ما افتقر إلى بعضه به ، فإن العالم مفتقر إلى الأسباب بلا شك افتقاراً ذاتياً ، وأعظم الأسباب له سببية الحق ، ولا سببية للحق يفتقر العالم إليها سوى الأسماء الإلهية ، والأسماء الإلهية كل اسم يفتقر العالم إليه من عالم قبله ، أو عين الحق ، فهو الله لا غيره ، ولذلك قال : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد) ، ومعلوم أن لنا افتقاراً من بعضنا لبعضنا ، فأسمائنا أسماء الله تعالى ، إذ إليه الافتقار بلا شك ، وأعياننا في نفس الأمر ظله لا غير » (١٧) . . « فإذا شهدناه شهدنا نفوسنا ، وإذا شهدنا شهد نفسه » . . « فهو مرآتك في رؤيتك نفسك ، وأنت مرآته في رؤيته أسماءه ، وظهور أحكامها ، وليست سوى عينه » . . ومن أجل هذا « أنشأ صورته الظاهرة من حقائق العالم وصوره ، وأنشأ صورته الباطنة على صورته تعالى ، ولذلك قال فيه : « كنت سمعه وبصره » ، ما قال : « كنت عينه وأذنه ، ففرق بين الصورتين » . .

(١٧) نفوس الحكم - ص ١٠٥

ولهذا كانت (معرفة الإنسان بنفسه مقدمة على معرفته بربه ، فإن معرفته بربه نتيجة عن معرفته بنفسه) .

« لذلك ربط النبي - ﷺ - معرفة الحق بمعرفة النفس ، فقال : « من عرف نفسه عرف ربه » ، وقال تعالى : (سزيم آياتنا في الآفاق) ، وهو ماخرج عنك ، (وفى أنفسهم) ، وهو عينك ، (حتى يتبين لهم) ، أى للنظر ، (أنه الحق) ، من حيث إنك صورته ، وهو روحك ، فأنت له كالصورة الجسمية ، وهو لك كالروح والمدبر لصورة جسدك » .

ولهذا . . فالإيمان بالله فطرة الإنسان ، أى إنسان (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) ، « فإن للحق فى كل معبود وجهًا يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله . . وإن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله فى كل معبود » ، وذلك لأن « العالم هو بالنسبة إلى الحق كالظل للشخص ، وهو ظل الله » (١٨) ، ولن يفصل الظل عن صاحبه ، لكن لن يكون الظل صاحبه . .

يقول الحلاج : « كما أن ناسوتيتى مستهلكة فى لاهوتيتك ، غير ممازجة إياها ، فلاهوتيتك مستولية على ناسوتيتى ، غير ممابة لها » (١٩) . . « فالذى بالجسم ظهوره ، فالعرض يلزمه ، والذى بالأداة اجتماعه ، فقواها تمسكه ، والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت ، والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسه ، والذى ألوهم يظفر به فالتصوير يرتقى إليه ، ومن آواه محل أدركه أين ، ومن كان له

(١٨) فصوص الحكم . . ص ٥٣ و ٦٣ و ٥٥ و ٢١٥ و ٦٩ و ٧٢ و ١٠١ على الترتيب .

(١٩) أسرار الحلاج . ٨ .

جنس طالبه مكيف» (٢٠) .

ومن هنا كان معتقد الصوفية - كما قال أبو علي الفارسي - أن « العارف من الله بمنزلة شعاع الشمس ، منها بدأ ، وإليها يعود ، ومنها يستمد ضوءه » (٢١) .
ومع قوة اتصال الشعاع بالشمس ، فإن الوعي الإنساني ، والمعرفة الصادقة ، تجعل من هذا الاتصال استغراقاً في الحب ، أو رغبة الفناء في المحبوب ، ولهذا كان الحلاج يصيح في سوق بغداد .
(يا أهل الإسلام ، أغثوني ، فليس يتركني ونفسي فأنس بها ، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها ، وهذا دلال ، لا أطيعه .. ثم أنشأ يقول :

حويت بكلّي كل كلّك يا قدسي
تكاشفني ، حتى كأنك في نفسي
أقلب قلبي في سواك فلا أرى
سوى وحشتي منه وأنت به أنسى
فهأنا في حبس الحياة ممّنع
عن الأنس ، فاقبضني إليك من الحبس (٢٢)

وليقل ما شاء من يشاء .. ليسموا هذا «حلولاً» ، أو «وحدة وجود» ، مادام

(٢٠) الرسالة القشيرية - ج ١ ص ٢٨ و ٢٩ .

(٢١) أخبار الحلاج - ص ١٢١ .

(٢٢) للصدر السابق - ص ٥٧ .

المحب لا يرى إلا محبوبه ، وما دام المحبوب يملأ كل وجود المحب ، حتى إنه ليقول للمحبيب « يا أنا » ، وهو ما يسمى بالوصول . . وصول البداية - كما يقول ابن عربي - « وهو أن ينكشف للعبد جلبة الحق ، ويصير مستغرقاً به ، فإن نظر إلى معرفته لا يعرف إلا الله ، وإن نظر إلى همته فلاهم له سواه ، فيكون كله مشغولاً بكلمه ، ولا يلتفت في ذلك إلى نفسه ليعمر ظاهره بالعبادة ، وباطنه بتهديب الأخلاق . . ووصول النهاية أن ينسلخ العبد من نفسه بالكلية ، ويتجرد له ، فيكون كأنه هو » (٢٣) . .

يقول الحلاج : « ليس يستر عني لحظة فأستريح ، حتى استهلكت ناسوتي في لاهوتيته ، وتلاشي جسمي في أنوار ذاته ، فلا عين لي ولا أثر » (٢٤) . ولا شك في أن الصوفية يرون أنهم بهذه « الإذابة » ، والتركيز العقلي ، يستطيعون الحصول على تقرب أكثر ، ومعرفة أدق بالخالق ، وتوصل أفضل إلى الحقيقة . . وليس الفناء « شبيهاً بوصل الجسم بالجسم ، أو العرض بالعرض ، أو العلم بالمعلوم ، أو الفعل بالمفعول ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » (٢٥) ، إذ الأمر لا يخرج عن المعرفة ، فالحب ، فالاستغراق ، فإنكار الذات . . « ومن قال بالحلول فهو معلول ، وهو مرض لا دواء لدائه ، ولا طبيب يسعى لشفائه » (٢٦) . . وذلك لأن العلاقة بين الخالق والمخلوق لا تتجاوز أن المخلوق مرآة الخالق ، لأن الله لما نسب الكبرياء الذي له ما جعل محله إلا السموات

(٢٣) ابن عربي - بلاطوس - ص ٢٥٣ عن التحفة ص ١٤ و ١٥ .

(٢٤) أخبار الحلاج ص ٢٦ .

(٢٥) ابن عربي - ص ٢٥٢ عن التحفة - ص ١٤ .

(٢٦) الفتوحات - ج ٤ ص ٣٧٩ .

والأرض فقال : (وله الكبرياء في السموات والأرض) ، ما قال في نفسه ،
فالمحل هو الموصوف بالكبرياء الذي لله ، فالعالم إذا نظر إلى نفسه صغيراً ، ورأى
موجده متزهاً عما لا يليق به ، سمى ربه كبيراً ، وذاكبرياء ، لما كبر عنده ، بما له
فيه من التأثير والقهر . . وكذلك رأى لما قامت الحاجة به والفقرا إلى غيره احتاج
أن يعتقد ويعلم أن الذي استند إليه في فقره له الغنى ، فهو الغنى سبحانه في
نفس عبده ، وهو بالنظر إلى ذاته - معزى عن النظر إلى العالم - لا يتصف
بالغنى . . فالعبد هو محل الكبرياء والغنى والعظمة والعزة التي لله ، فوصف العبد
ربه بما قام به ، فأوجب المعنى حكمه لغير من قام به ^(٢٧) . . ويتأمل هذه
العلاقة يزداد قرب المخلوق من خالقه ، ويتخلص من كل ما يفصله أو يشغله
عنه ، ومن ثم لا يألو تطهراً وصفاء وسمواً ، حتى يتلاشى وجود المخلوق في
حضرة الخالق . .

• • •

مفاهيم ترتفع بأصحابها إلى درجة القديسين والأولياء الذين (لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون) ^(٢٨) .

لكن هذا السموكثيراً ما تصاحبه عبارات ، قد يذهب بها الظن مذاهب ،
فاستغلها أعداؤهم ، أصحاب المذاهب الأخرى ، أو رجال السياسة ، أو
الغيورون على الدين ، بحسبان أن هذه العبارات يضل بها العامة ، لأنهم
لا يفهمون مغزاها .

(٢٧) الفتوحات - ج ٣ ص ٥٣٧ .

(٢٨) سورة يونس - ٦٢ .

ولعل هذا ما حدا بابن تيمية إلى القول :

« يدعون التوحيد والقضاء في التوحيد ، ويقولون : إن هذا نهاية المعرفة ، وإن العارف إذا صار في هذا المقام لا يستحسن حسنة ، ولا يستقبح سيئة ، لشهوده الربوبية العامة ، والقيومية الشاملة . . هؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام ، الذين قال الله تعالى عنهم : (قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟) يقولون : لله ، قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ يقولون : لله ، قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، إن كنتم تعلمون ؟ يقولون : لله ، قل : فأني تسحرون ؟) فهؤلاء الضلال الكفار الذين يزعم أحدهم أنه يرى ربه بعينه ، وربما يزعم أنه جالسه وحادثه ، يستتابون ، فإن تابوا ، وإلا ضربت أعناقهم ، وكانوا كفارًا ، إذ هم أكفر من اليهود والنصارى الذين قالوا : (إن الله هو المسيح بن مريم) (٢٩) .

ومع هذا فابن تيمية يلتقي بمذهب المتصوفة في (القضاء) بقوله :
« القضاء المأمور به الذي جاءت به الرسل ، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ، وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه ، فيكون مع الحق بلا خلق ، كما قال الشيخ عبد القادر : كن مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس » . .

« إنه استفرغ وسعه في محبوب الحق ، فصار الحق يحبه المحبة التامة ، التي

(٢٩) مجموعة الرسائل الكبرى - ج ١ ص ٣٤٢ و ٢٩٣ .

لا يصل إليها من هو دونه في التقرب إلى الحق بمحوباته ، حتى يصير يعلم بالحق ، ويعمل بالحق ، فصار به يسمع وبه يبصر ، وبه يبطلش ، وبه يمشى » (٣٠) . .

وكما فعل ابن تيمية احتج ابن قيم الجوزية عليهم بأن « الصحابة - رضى الله عنهم - وهم سادات العارفين ، وأئمة الواصلين المقربين ، وقدوة السالكين - لم يكن منهم من ابتلى بذلك ، مع قوة إرادتهم ، وكثرة منازلهم ، ومعاناة ما لم يعاينه غيرهم ، ولا شئ له رائحة ، ولم يخطر على قلبه ، فلو كان هذا الفناء كمالاً لكانوا هم أحق به وأهله ، وكان لهم منه ما لم يكن لغيرهم . . . ولا كان هذا أيضاً لنبينا ﷺ ، ولا حالا من أحواله ﷺ ، ولهذا - في ليلة المعراج ، لما أسرى به ، وعابن ما عابن ، مما أراه الله إياه من آياته الكبرى - لم تعرض له هذه الحال ، بل كان كما وصفه الله عز وجل بقوله : (ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (٣١) . . . ومع هذا ، فأصبح بينهم لم يتغير عليه حاله ، ولم يعرض له صعق ولا غشي ، يخبرهم عن تفصيل ما رأى ، غير فأن عن نفسه ، ولا عن شهوده » . . . إن « مراد الحق تعالى من عبده استحضار عبوديته ، لا الغيبة عنها ، والعامل على الغيبة عنها عامل على مراده من الله ، وعلى حفظه والتنعم بالفناء في شهوده ، لا على مراد الله منه ، وبينهما ما بينهما » (٣٢) .

وعاد فقال : « إن كان العبد مشمراً للفناء العالى ، وهو الفناء عن إرادة

(٣٠) مجموعة الرسائل الكبرى - ج ٢ ص ١٢٧ و ١٢٨ .

(٣١) النجم - ١٧ و ١٨ .

(٣٢) مدارج السالكين - ج ١ ص ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ .

السَّوِي - لم يبق في قلبه مراد يزحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني ، بل يتحد المرادان ، فيصير مراد الرب هو مراد العبد ، وهذا حقيقة المحبة الخالصة ، وفيها يكون الاتحاد الصحيح ، وهو الاتحاد في المراد ، لا في المرید ولا في الإرادة . . وهذا الفناء أوجبه الحب الكامل المترج بالتعظيم والإجلال والقرب ، ومحو ما سوى مراد المحبوب من القلب ، بحيث لم يبق في القلب إلا المحبوب ومراده ، وهذا حقيقة الاعتصام به وبجمله . . . « نعم ، قد يعذر في الفناء في الذات المجردة ، لقوة الوارد ، وضعف المحل عن شهود معاني الأسماء والصفات ، فتأمل هذا الوضع ، وأعطه حقه ، ولا يصدك ذلك ما يحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والذوق ، فإننا لا ننكره ، بل نقر به ، ولكن الشأن في مرتبته » (٣٣) .

هذا هو موقف غلاة أهل السنة من « الفناء » ، وما أظن أحداً يخرج بالصوفية - من خلال ما أوردنا من أقوالهم - عما ذهب إليه ابن تيمية وابن قيم الجوزية في مفهوم الفناء والحب .

عن إبراهيم بن شيان ، قال : دخلت على ابن سريج يوم قتل الحلّاج ، فقلت : يا أبا العباس : ما تقول في فتوى هؤلاء في قتل هذا الرجل ؟ قال : لعلمهم نسوا قول الله تعالى : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) ؟ . وقال الواسطي : قلت لابن سريج : ما تقول في الحلّاج ؟ قال : أما أنا فأراه حافظاً للقرآن ، عالماً به ، ماهراً في الفقه ، عالماً بالحديث والأخبار والسنن ، صائماً الدهر ، قائماً الليل ، يعظ ويبيك ، ويتكلم بكلام لا أفهمه ، فلا أحكم بكفره .

وعن أبي بكر الشبلي ، قال : قصدت الحلاج وقد قطعت يداه ورجلاه
وصلب على جذع ، فقلت له : ما التصوف ؟ فقال : أهون مراقبة منه ما ترى ،
فقلت : ما أعلاه ؟ فقال : ليس لك إليه سبيل ، ولكن سترى غداً . .
وقُدِّم لتضرب عنقه ، فقال بأعلى صوته : حسب الواحد أفراد الواحد له ،
ثم قرأ : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ،
ويعلمون أنها الحق) الآية .

وقيل : هذا آخر شيء سمع منه ، ثم ضربت عنقه ، ولف في باريه ، وصب
عليه النفط وأحرق ، وحمل رماده على رأس منارة لتسفه الريح^(٣٤) . .
وتسف الريح هذا الذي يقول : « هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي ، تعصباً
لديك ، وتقريراً إليك ، فاغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا
ما فعلوا ، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت فلك الحمد فيما
تفعل ، ولك الحمد فيما تريد »^(٣٥) .

ويقول لإبراهيم بن قاتك : « يا بني ، إن بعض الناس يشهدون على
بالكفر ، وبعضهم يشهدون لي بالولاية ، والذين يشهدون على بالكفر أحب إلي
وإلى الله من الذين يقرون لي بالولاية » .

فقال إبراهيم : يا شيخ ، ولم ذلك ؟

قال : « يشهدون لي بالولاية من حسن ظنهم بي ، والذين يشهدون على
بالكفر تعصباً لدينهم ، ومن تعصب لدينه أحب إلي الله ممن أحسن الظن
بأحد »^(٣٥) . .

(٣٤) أخبار الحلاج - ص ١٠٦ و ١٠٧ و ٣٦ .

(٣٥) أخبار الحلاج - ص ٨ و ١٤ و ١٥ .

رحم الله «الحسين بن منصور» ، لم أر متحدثاً رتق وفتق ، وبربه نطق ،
وأقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، وركب طبقاً على طبق -
مثله ، فإنه نور في غسق ، منزلة الحق لديه منزلة مومي من التابوت ، ولذلك
كان يقول باللاهوت والناسوت « (٣٦) » .

* * *

أما عن قوله : « أنا الحق » فتعبير لا يكاد يخرج عن « استفراغ وسعه في
محبوه الحق » - كما قال ابن تيمية - بحيث صار « أنا من أهوى ومن أهوى
أنا » ، أو كما قال آسین بلاثيوس : « يبدو أنها لا تدل على أكثر مما تدل عليه
عبارة القديس بولس : « المسيح يحيا في » .. »

يقول أحمد القاروق السرهندي - مجدد الألف الثانية - « قول الحسين بن
منصور الخلاص : « أنا الحق » ، وقول أبي يزيد البسطامي : « سبحانه ،
ما أعظم شأني » ، وأمثال ذلك ، فالأولى والأنسب تنزيلها إلى التوحيد
الشهودي . وإبعاد المخالفة عنها ، فإنهم لما اختفى ما سوى الحق عن نظرهم
تكلموا بهذه الألفاظ في غلبة ذلك الحال ، ولم يثبتوا غير الحق ، سبحانه ،
ومعنى قوله : « أنا الحق » أنه الحق دون أنا ، فإنه لما لم ير نفسه لم يثبت ، لا أنه
رأى نفسه ، وقال إنه الحق ، فإن هذا كفر ، وفي قول : « سبحانه » أيضاً
تنزيه الحق ، لا تنزيه القائل نفسه ، فإن نفسه قد ارتفع عن نظره بالكلية ،
ولا يتعلق به حكم أصلاً » (٣٧) .

فكان الخلاص ما أراد إلا أن الموجود واحد ، وليس هناك شيء إلا الله ،

(٣٦) الفتوحات - ج ٤ ص ٣٣٢ .

(٣٧) المكتوبات للسرهندي - إستانبول سنة ١٩٦٣ - ج ١ ص ٥٦ .

وكل امرئ أفنى عن نفسه الذاتيات الشخصية قائم بالحق ، وهو « الحق » ، أى بمجرد أن تزول عنا « أنا ونحن وأنت » لا يبقى شيء إلا « هو » ..
يقول الصوفية : كما أن شجرة مشتعلة قالت لموسى : « إني أنا الله » ، كذلك فنى الحلاج ، واتصل بالحق ، فقال : « أنا الحق » ، وإذا كان جائزاً قول شجرة : « أنا الله » فكيف لا يجوز ذلك من رجل سعيد ؟ ! ومتى ما فنى السالك فى الله اتحد معه ، كالقطرة إذا سقطت فى البحر ، تزول عنها ذاتية القطرة ، وإذا ما فنى فى البحر ، ولم يبق شيء سوى البحر ، تستطيع القول حينئذ : « إني أنا البحر » (٣٨) ..

أو بمعنى آخر : إن قول « بعض الرجال : ما فى الجبة إلا الله ، يريد أنه ما فى الوجود إلا الله ، كما لو قلت ما فى المرأة إلا من تجلى لها لصدقت ، مع علمك أنه ما فى المرأة شيء أصلاً ، ولا فى الناظر من المرأة شيء ، مع إدراك التنوع والتأثر فى عين الصورة من المرأة ، وكون الناظر على ما هو عليه لم يتأثر » (٣٩) ، فالحلاج لم يزد على كونه مرآة لله .

أما قول أبي يزيد : « بطشى أشد » ، حين سمع قارناً يقرأ (إن بطش ربك لشديد) ، فداره أن بطش المخلوق - إذا بطش - لا يكون فى بطشه شيء من الرحمة (٤٠) ، على حين تصحب الرحمة الإلهية بطش الخالق بمخلوقاته .. وهذا أشبه بقول أحد شيوخ ابن عربى - ممن كان مثل أبي يزيد فى الحال - إن الحق ذكر له عظم ملكه ، فقال الشيخ : يارب ، ملكى أعظم من

(٣٨) تاريخ التصوف فى الإسلام - ج ٢ - ص ٥٥٠ .

(٣٩) الفتوحات ج ٣ ص ٨٠ .

(٤٠) للمصدر السابق - ج ٣ ص ٤١٢ .

ملكك ، فقال له : كيف تقول ؟ ! وهو أعلم ، فقال الشيخ : يارب ، لأن
ملكك في ملكي ، فإنك لي ، تجيبني إذا دعوتك ، وتعطيني إذا سألتك وما في
ملكك مثلك ، فقال : صدقت ^(٤١) . .

هولون من « الاستطالة » اللفظية القائمة على « الدلال » و « الاستدلال »
معًا . .

فقول أبي يزيد : أنا الله ، يعنى : أنا أدل على هوية الله من كلمة الله
عليها ^(٤٢) .

• • •

ومع هذا ، فليس كل الناس على مثال الحسين بن منصور الخلاج أو
أبي يزيد البسطامي .

وما أحسن قول ابن عربي في هذا : إن « المحب لله كلما أعطاه إدلال الحب
وصدق المودة من الخلل - في ظاهر الأمر - لا يؤاخذ به المحب ، فإن ذلك
حكم الحب ، والحب مزيل للعقل ، وما يؤاخذ الله إلا العقلاء » ^(٤٣) .
ولو أننا توقفنا عند قوله : « في ظاهر الأمر » لكان على من لا يملكون أن
يتقوا الله فيمن يملكون .

(٤١) الفتوحات - ج ٢ ص ٤١٠ .

(٤٢) للصدر السابق - ج ٤ ص ١١٨ .

(٤٣) نفسه - ج ٢ ص ٣٥٨ .